إذعان صغير ...

فهد العتيق

مجموعة قصصية صدرت عام 1990م

الناشر مختارات فصول بالقاهرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حصة رسم

في برودة الحجرة الدراسية المكتظة بالأطفال، الرؤوس المسترخية على الكراسي الخشبية , تبدو على وجوهها ملامح كسل صريح، ورغبات عميقة في النوم، تختبئ خلف ستار ثقيل من الخوف والحزن .
جدران الحجرة صفراء يتساقط جيرها من آثار المطر، ومن السقف تنزل خطوط حمراء لطين جف منذ زمن، وفى الزاويا تبرز شروخ سوداء كأنما هي أنهار جارية على كف أرض رطبة، وبين الزوايا الأنهار، في مساحات الجدران الصفراء , تقرأ تواريخ وذكريات وكتابات متقاطعة , وترى رسومات لوجوه مشوهة .

صباح غانم يميل إلى الظلام , يذكر بأيام الأمطار وأصوات الرعود , وسقوط البيوت , والهواء البارد يدخل من نافذة الفصل , يذكي مشاعر الأطفال , أو يؤذي أجسادهم الضعيفة .

يدخل الأستاذ، يسرع إلى اللوح الأسود ويكتب في الزاوية اليمنى العليا :

المادة : تربية فنية .

الموضوع : اختياري.

وبعمق الفهم بنزق الطفولة ورغبات الصغار في الحركة الشقية، رأى الأستاذ أن يأتي بعصاه على مكتبه الخشبي بضربة مدوية، وفعلها فورا، فاهتز نعاس الصغار، وأيقظ الصوت فيهم من جديد تلك المشاعر المتربعة في صدورهم منذ زمن، بالخوف.

يرفع الأستاذ عصاه من سطح الطاولة، ويطلب من كل واحد أن يرسم في كراسه ما يشاء، وأن يستخدم من الألوان ما يشاء وانه أخيراً لا يريد أن يسمع صوتا.

ثم أنه رمى جسده على كرسيه , وأغمض عينيه على نومه صريحة.

كان الهواء البارد القادم من النافذة يلفح وجهه , ليبدو السيد مدرس المادة أكثر قدرة على الإحساس بلذة الاسترخاء والشعور بها بعمق، يأتي التيار سريعا، يطعن وجهه وكامل جسده فينام , بينما تراود كل الأطفال رغبة ليست أقل من رغبة أستاذهم في أن يغمضوا أجفانهم الصغيرة , متمتعين بهذا التيار البارد ومستريحين من تعب الحارة والركض الطويل.

وبعد دقائق ..

راح الفصل بكامل نجومه في نومة جميلة، ما عدا طفل صغير مازالت عيونه اللامعة تبحلق في المكان بتوجس مريب.

خالد طفل شقي .. وفنان ، ولكنه يكره النوم.

ينام كل يوم أربع ساعات فقط , ويقضى بقية يومه في حماس سخي يبلغ ذروته في الصباحات المدرسية، خالد يكره النوم ويكره أن يرى النعاس المسيطر دائماً على وجوه زملائه , وعلى المحيا الغامض لأستاذه , وفكر في هذه اللحظة أنه يتعين عليه فعل شيء .

نهض خالد من كرسه بهدوء ، يختلس الخطوات إلى لوح الفصل ، في مشية صغيرة ، حذرة ، وحلوة ، لا يملكها إلا هو ، تناول إصبع اللون الطباشيري الأبيض , وكتب على اللوحة بخط عريض (خالد طالب مجد) , ثم التفت إلى الفصل ،

وعجب بفرحة غامرة , كيف أن الجميع لم يشعروا به ، وأخذته نشوة الإحساس بالوحدة والحرية إلى ما لا نهاية ، التفت إلى أستاذه فرأى وجها مدورا ، عيناه مسبلتان على نومة واضحة , وعاد ثانية إلى اللوح تتلألأ عيناه ببريق الفرحة الموصولة التي يكتمها في صدره , منذ أحس في البدء أن الجو موات ليمارس على لوح الفصل ما يشاء , مسح ما كتبه ورسم شكلاً لأستاذه النائم جواره كما بدت له هيئته المثيرة للشفقة ، وجه مدور وجسد أخذ شكل الرقم (2) , على كرسي خشبي صغير مدور ، وكتب خالد أسفل الشكل، وهو يكتم ضحكة متسلطة : مدرس الفصل 5/3 , ثم عاد إلى كرسيه مبهوراً بإنجازه , وهو يعقد عزمه على نقل ما رسمه إلى كراسته.

يفيق الأستاذ بكسل على صوت جرس الحصة ، ينظر إلى وجوه طلابه فلا يرى إلا ظلالاً وأخيلة ، فيحس أنه لا يملك القدرة على تمييز وجوههم , ويوقن تماما أنه أكثر تعباً مما يظن ..

يقف متثاقلاً ، يلتفت إلى لوح الفصل ، يتأمل الوجه المرسوم ببراءة , فيخيل إليه أنه رأى هذا الوجه من قبل ، يعرك عينيه بيديه ، يأمر عريف الفصل بجمع الكراريس الخاوية , ويخرج مصحوباً بالغموض.

شروق البيت

لضحى البيت في الشتاء مذاق خاص , ورائحة خاصة لم أشمها منذ زمن , صحوت هذا اليوم فعرفت كم أنا أكره المدرسة , وكان أبى قد أخذ لي أذنا بالراحة بعد أن طال عنادي ومرضت.

الوقت ضحى ساطع , ونور يغمر البيت , في وقت لم أره كثيراً وهو يرسم ملامحه المتميزة على الجدران والأشياء , لم أرأشعة الشمس تسقط علينا من هذا الشرق الجميل, فتملأ الساحة الصغيرة للبيت بهذا الضوء النورانى , كأنه الفرح يصب في بيتنا , رأيت أن أمي مشغولة , فركضت إلي باب الشارع لأرى كيف تأتى شمس الصباح على شارعنا الصغير , فتحت الباب , وكما لو أنني أراه لأول مرة , بدا لي لأول وهلة أنه شارع آخر لا أعرفه , وجدت أن الشمس تأتيه من الجهة الأخرى , من الشرق , أليفة , طازجة وجميلة , وأدركت بعمق الإحساس , كم أنا غائب عن أشياء رائعة ولها طعم خاص , جلست أتأمل الشارع بفرح من يتذكر زملاءه , وهم يعانون في المدرسة كأنهم يبكون , وامتلأ رأسي فجأة , بصورة واحدة , لمدرس العربي عندما يتحدث , يمتلئ فمه بالزبد الأصفر الذي يرشقه في وجوهنا كل صباح , كانت لحيته سوداء هائلة , وثوبه دائماً أسود , فيبدو لي وأنا أتخيله أنه هو المدرسة نفسها , وأتذكر أيضاً زميلي خالد , ذات صباح عندما كنت أطل من نافذة الفصل على ساحة المدرسة ، فأرى البواب يجره إلى الفصل , ويجلسه بجانبي وهو يبكى بوجه أحمر خجول .

كنت أتأمل الشارع بعمق , وإذا حركة النساء كبيرة في هذا الوقت من اليوم ، يتبادلن مواد الطبخ وأنواع الأقمشة ويتحدثن كثيرا , لأول مرة أسمع أصوات نساء حارتنا بهذا الشكل الواضح ..

امتلأت بإحساس أن الصباح دائماً لنساء الحارات , بينما المساء لرجالها وطلاب المدارس , وكنت أيضاً أرى الأطفال الصغار , الذين لم يعرفوا المدرسة بعد , يلعبون بالأتربة جوار أبواب بيوتهم .

بعد وقت عدت إلى البيت بنشوة غريبة , فقد كنت أتمنى أن يطول هذا الضحى الجميل , أكبر قدر ممكن لكي يستمر هذا الإحساس معي بمعنى الحياة , وأعيش متمتعا به .

شربت (الشاي) مع أمي ومع جاراتها , ثم استلقيت على ظهري بينهن , أتأمل فتحة سقف بيتنا , وأرصد حركة شمس الشروق على جدرانه بدهشة بالغة وفرح غامر , وكانت جارات أمي يلاطفنني بحركات مجاملة مضحكة , وكنت أكتفي بأن أنظر في وجوههن بكره , وبعضهن يسألن عن مدرستي فأصمت مملوءا بالرغبة أن يعجلن بالخروج , أغمض حدقتي وأتذكر بحزن تعاقب حصص المدرسة وثقلها , وكنت نصف نائم عندما شعرت بحركة النساء , ثم تعود أمي إلى جانبي ، تعبث بأصابعها الرقيقة في شعر رأسي , وكنت أحس بكفها ثقيلة وناعمة , ودافئة تحت شمس الشتاء. فأستمتع بلذة قوية لم أستطع معها فهم ما كانت تحدثني عنه , حتى سألتني بمفاجأة وصوت مرتفع قليلاً: هل فهمت ؟ رفعت عيني إلى وجهها وأنا لا أعرف عن ماذا كانت تتحدث , قلت لها: نعم , وسألتني ماذا ستقول لأبيك بعد أن يأتي ؟ فسكت , قالت : سوف تقول له أنك تحب المدرسة وأنك سوف تعود إليها , فهززت رأسي وأنا أخفي رفضاً صارماً , وكنت أفكر كثيراً أنني أخاف من أبي , وركضت مذعوراً كفأر إلى غرفة قصية مهملة , كنت أحفظ بها أشيائي وأنام في إحدى زواياها , بقيت ساعة في الغرفة الصغيرة لا أعرف ماذا أعمل , كنت فقط أرسم خطوطاً ليس لها دليل أو غاية, أخط في ورقة وأمزقها , حتى أحاطت بي الأوراق المشوهة من كل جانب , وكنت أشعر برغبة في البكاء .

نظرت إلى الأوراق المكومة حولي في ظلمة الغرفة , وإلى الشعاع الشمسي الذي يطل علي من ثقب صغير في نافذة الغرفة ، ولا أدري لماذا شعرت أنني لا أكره المدرسة فقط , بل إنني أكره البيت أيضاً بشكل غامض.

إذعان صغير

نهضت في التاسعة صباحاً , ذهبت إلى دورة المياه ، اغتسلت , وعدت إلى فراشي , كنت على وشك الدخول في اللحاف الدافئ حين رأيت يدا بجانبي تمتد نحوي , وهى تحمل ورقة بيضاء ، مددت يدي ، تناولت الورقة .. لأقرأ:

نحن مكتب الحقوق المدنية نطلب منك أن تحضر أمام السيد مدير المكتب في العاشرة صباحا .

الآن بقى ساعة على موعد الإذعان أمام مدير مكتب الحقوق ، وعليّ حقيقة أن أذعن ، حتى لا يزداد الأمر سوءاً ، نهضت وتناولت إفطاراً سريعاً، ثم خرجت إلى مكتب الحكومة ، دخلت المبنى بنشوة غريبة ، رسمية وجادة ، فبقدر ما أكره مثل هذه الأماكن, بقدر ما تجدني مذعناً ومنتشياً بشكل مضحك , فأنا دائماً هنا أتحدث بصوت جديد ، غريب ، مرتفع قليلاً ، ويضحك ، ربما لإحساسي بأن عليّ أن لا أذعن لهم بشكل جاد ، وصلت المكتب ودخلت، جلست على يسار مدير المكتب الذي لم يهتم لدخولي ، وبدأت أشرح له كيف أني صحوت أصلاً لأذهب إلى الحمّام ، وفوجئت بيد تسلمني ورقة المكتب , ورأيت جارى فجأة يجلس قبالتى على يمين مدير المكتب , نهضت بسرعة ، شددت على يده وأنا أضحك , سألته: وأنت

أيضاً طلبوا منك أن تذعن ؟ , ابتعد بوجهه عني , عدت إلى الكرسي مهزوماً , ليسألني المسئول فجأة:

أنت صاحب سرب الحمام الذي يحلق في الحارة ؟

– نعم .. لكن ما علاقة ..؟

الحمام الذي يطير في فضاء الحارة (.......).

– نعم !

وفجأة تحدث جارى بصوت مرتفع قليلاً كما لو أنه يخطب:

أيها المدير:

لقد امتلأ سطح منزلي بالحجارة , و هذا الرجل غارق في جنونه المتصل منذ سنين , وأنا أريد حلاً عاجلاً ..

أدركت أن جارى هو غريمي , ورنت كلمة ((جنونه)) في أذني بقوة , كأنها صفعة , فنهضت وقلت له:

– اخرس ..

كنت أريد أن أقول له أن عليه أن يحترم المكان على الأقل ..

ولكن مدير المكتب تدخل بسرعة .. وسألني:

– جارك يدعى أنك ملأت سطح منزله بالحجارة , وأنك تطارد حمامك في الفضاء بشكل مزعج للجميع.

- ليس صحيحا على الإطلاق.

- وأنك تتراجم مع أطفاله بالحجارة , وأصبت أحدهم في رأسه.

- يا عزيزي : انهم ليسوا أطفالا , أنهم شياطين صغار , مثل والدهم.

رأيت جارى ينتقض , ويقف بسرعة , فأومأ له المدير بحركة غامضة , كانت إيماءة مريبة , جعلتني أشعر أن بينهما اتفاق ما , وملأني شعور بالضآلة أمامهم.

قال المسئول لي:

- هذا الحمام عندما يحلق في الفضاء بشكله الجميل , يغري بعض الصغار لملاحقته أما بعيونهم السوداء الصغيرة .. أو بحجارتهم.

وعقّب الجار:

- وهم أطفال في نهاية الأمر ..

ثم ضحك بسخرية وكرر.

- مجرد أطفال.

قلت للمسئول:

- لفظة يلاحقونه ليست دقيقة , قل يطاردونه بأحجارهم الكبيرة التي ملأت بيتي وأفزعت أطفالي.

قال:

- طبعاً ، أنت تصرف على هذا الحمام.

– تبادل منفعة .

– وهو يتلقى أوامرك.

– ليس دائماً.

– أسمع ..

– نعم سعادة مدير الحقوق المدنية , أنا معك , أنا جئت هنا لكي أذعن كما جاء في خطابكم الموقر, ونحن في آخر الأمر مواطنون مذعنون بشكل أو بآخر كما أن ... !

وقاطعني المسئول:

– عندما يطارد الأطفال حمامك بالحجارة , وتتأذى أنت ويتأذى جارك تكون أنت المسئول.

قلت : ليس بالضرورة.

قال : أليس الحمام يخصك وحدك ؟

قلت : ولكنه في نهاية الأمر مجرد حمام لا يستحق منكم , ثم أن أطفال هذا الرجل يقصدون الإساءة لي بشكل مستمر , لقد كانوا يجمعون أطفال الحارة في سطح منزلهم لملاحقة الحمام , حتى وهو بعد راقد في أعشاشه , و أنا يا سيدي , وجدت أن المسالة بدأت تأخذ شكل الحرب, قلت أنني لست ضعيفاً إلى حد الصمت على الإهانة, وبدأت أبادلهم الرجم , اعترف لك بهذا, لأنني لا أكذب وأتمنى أن

تصدهم عني , لأنهم بدأوا في الأيام الأخيرة يستخدمون النبال الصغيرة , وأنا الآن أعلن إذعاني أمامكم لكي أحصل على حقي.

- حقك في ماذا ؟

- هذا الرجل الجالس أمامي , عصر أمس, كان يجلس القرفصاء أما بابه ويضحك.

- وهل كنت تنتظر أن يبكى.

- كنت أنتظر أن يرمى الحجارة مع أطفاله, لأنني كنت أشاهده يصنع لهم النبال الصغيرة , التي أثارت رعب أهل بيتي.

- أنت تتحدث كما لو انهم يقصفونك بالقنابل.

- أجل كما لو أنهم كذلك , لان الحجارة تتساقط على سطح منزلي وتحدث دوياً هائلاً.

- يا أخي الحجارة الآن تتساقط على سطح منزلي , وربما غداً تسقط على سطح مكتبكم الجميل هذا.

- اسمع ..

- نعم ..

- نحن مكتب الحقوق المدنية , نرى أن عليك بيع الحمام , ثم يلتفت إلى جارى.

- وعليك أنت إيقاف أطفالك عن رجم الحجارة.

وأضاف لنا جميعاً:

كل هذا من أجل سلامة الحارة , وسوف نحقق في الأمر بعد أسبوع , تدخلت في شأن قرار المكتب , قلت للمدير المسئول أن هذا سيكلفني كثيراً , وقلت له أن سكان الحارات الأخرى يطيرون حمامهم بحرية , وقلت له أيضاً أن جاري هذا الجالس أمامي، سبق أن عرض علي شراء حمامي , وأنه من أجل هذا ....!

قاطعني المسئول:

- عليك تنفيذ الأمر فوراً . وتوقيع هذا التعهد.

وقعت التعهد وخرجت:

دخلت بيتي زرت دورة المياه , اغتسلت , وعدت إلى مرقدي مرة أخرى , ورأيت فيما يرى النائم ولم أكن بنائم, أنني أبيع الحمام الجميل, وكنت أرى جاري , وأطفاله , ومدير مكتب الحقوق, على سطح بيت جاري , يبنون الأعشاش ويطيرون حماماً جميلاً في فضاء الحارة , يومئون له بالبيارق الحمراء .. و .. كانوا يتضاحكون في وجهي.

فوزان يقرأ الشوارع ليلا..

اسقيني يا أمي ، اسقيني أو مدي لي من رائحة التراب ، فأنا مازلت حفار قبر , وسائق (تاكسي) وصاحب جن , وطفل قبيلة , موطوء من رأسه حتى أخمص قدميه ، هذه المدينة وهذا الوقت , وهذا العفن , أخلت بماء الرأس فانصب ذات اليسار ، أفيق دائما – كما كنت تفعلين – في السابعة , أشرب قهوتك في السابعة صباحا على موسيقى النشرة الأخبارية وصدى ضحكاتك الصباحية (غادر بمثل ما ..) .

السابعة بعد الشروق , في الغرفة التي تطل نافذتها الصغيرة الواطئة على الأرض الخربة ، وقت جديد لاهث لم أستطع وسط حطام ساعاته , وأنا اللاهث , أن ألبسه , شرب من شراييني المثقوبة ومن ماء وجهي وأشتد فيّ جموح جراح , وجدت نفسي قاتلي , هربت منها إلي رأسي فإذا كأس النفس يندلق , كرات من نتف الثلج تتدحرج من عل وتسقط في قاع القلب , عبثا أسقط الذراع في ظلام واهدأ , يغنى المغنى , ويردد ألحانه أبناء النخيل ، صامت سنيناً من الركض والعناء , حتى جاء منتصف ليل صحوت فيه على فزع , قلت يا لهذا الوقت الكريه , أين الجدار؟ , ومضيت , ما بيني وبين فتحة الباب ظلام وأنفاس وأفواه صغيرة معلقة بلا أثداء ,

دخلت الشارع الأسود فلم أر القمر , رأيت سماء سوداء تتلألأ فيها نجوم وتخفت أخرى , لا غالب في منتصف الليل ولا مغلوب , ركبت سيارتي الصفراء ، هذا هو الأسود الذي كلما اقتربت منه يبتعد , له عينان غامضتان , وها قد عاد دوار الرأس..

اسقيني يا أم المصدور ماء ليل نقي , بالأمس إذا أصاب الرأس الدوار نمت , وإذا حزنت نمت , وإذا فرحت رقص في الحلق الكلام , ويخرج غناء للوقت ، واليوم إذا أصاب الرأس الدوار أدور , وإذا حزنت أدور , وإذا فرحت جف في الحلق الكلام.

لا , يمينا لست أبكى , وليس ما يقطر مني دموعاً ، هذا صوت مغنٍ مصدور صار في الوحدة برميل قمامة , تلك قطرات طل من سحابة المدينة النعامة.

رأيت أطيافا تومئ على الطريق , قلت : ماهذا ... أهلا بالوجوه الجميلة .. يا للناس الذين يعيشون منتصف الليل .. ولم لا تركبون ونحن ندور.

سقط أحدهم جوار الباب فحمله أصدقاؤه , اقفلوا الأبواب فركبت الطريق , تزاحموا يتضاحكون , وكلٌ يعاقر شيئاً في يده , ما أجمل هذا الأسود الحبيب , هذا الذي كلما اقتربت منه يبتعد , هذا الذي لا ينتهي , وجدتني أقود بانتشاء , هذا هو العيد , فإكليل زهور على قبر الحبيبة , ومرثية لحياة لم تر شمسا ، قلت أيتها الحبيبة، اهدئي يا نفس وتخثر يا دم وتحجر أيها القلب , الذي ينضح ماؤه أحمر , فأنا مملوك لهذا الوقت.

يا للناس الذين يعيشون منتصف الليل , وجوه فرحة مستبشرة , وجوه باشة مستبشرة , وأنا فرح اضحك , أخذ من أيديهم اللامعة البيضاء وأقدح , أقدح واضحك , وأدخن معهم سيجارا عجيبا , حتى وجدت الرأس يكاد ينفلق , نادمتهم , حتى سمعت صدى صوت ضربة على ظهري , أنت تسير في كل الخطوط يا أخ.

وانتبهت إذ فتحت عيني , كما لو كنت غائبا , التفت إليهم , أهلا , شباب يمرح , وسفر دائم , (الجامع الكبير : صوت الشيخ) , ونسيت أنني لم أر القمر , يا لهذا الليل الأظلم , وهذه الوجوه الجميلة ، يا لهذا الكلام الذي يجف في الحلق , كأن الشوارع لا تصل , شوارع سوداء بغيضة بلا ناس, وأرصفة جامدة.

أحدهم يتقيأ , بأي رأس يفيق , كيف أقول لك وهم في اتساع الصدر , هل أقول ناموا على صدري , الآن أستقر طائري الفزع , يا لهذا الفرح الراقد في إحداقهم , يهدهدني , ويبلغني قمة الانتشاء , وأهيم في الشوارع, هذه السوداء , ثم .. صوت أحدهم يتنهد:

- هنا أيها الأخ ..

نزل اثنان وبقى ثلاثة، شيعت النازلين حتى مدخل مظلم , رأيتهم يصادمون أجسادهم ويتضاحكون , وأنا خائف من عودة إحساس الوحدة , قال أحدهم وكان راقدا : واصل المشوار , واصل أيها الربع , قلت : فالتحيا الإهانة , هذا طريقي ,

ظللت أدور , أقول لكِ ظللت أدور وأغنى , والشباب نيام , ظللت أدور حتى الصباح , فدنوت من رصيف هادئ , توقفت وملت بالمرتبة , استلقيت ثم رحت في إغفاءة طويلة , ثم كانت الشمس تنشر بعض خيوطها الصفراء , حين أفقت ورأيتني وجها لثلاثة وجوه أمامي ثلاثة شبان , كانوا نائمين في المرتبة الخلفية.

رأيت حرسا وجدرانا متقاربة , رفعت رأسي فرأيت نافذة صغيرة عالية , التفت إلى أصدقائي , قرأت على ظهر أحدهم ....

كل الأشياء في الخارج ترسم حولي تفاصيلها , حتى نهار المدينة البعيد , اثنان لم يحتفلا بعيدها , أنا والمدينة , في يوم مشرق رمانا في التيه , في مدنه المجدولة التي أراها تتشكل , وكنت أذهب بإكليل الزهور إلى قبركِ , وأعود بجواد يصير جديا وأنا صرت إلى ذبابة , فاسقيني يا أم المصدور , أو أقصيني عن أرجوحة هذا الموت الحي ، في البيت أنفاس .. وأفواه صغيرة بلا أثداء .. وفي الدار الجديدة جسد ناحل أتعبه الترحال.

عمود التراب

دار الهواء حول نفسه دورتين , ثلاثا , أربعا , فاستيقظ التراب الراكد منذ زمن , وبدأ يلاحق موجات الهواء الصغيرة التي تدور حول نفسها ، اتسعت الدائرة ، فارتفع التراب عموداً أحمر , أخذ مكانا واسعا في الفضاء الفسيح على حدود المدينة , مدفوعا بريح أكثر يأسا , صارمة , بدأت تركض كأنها امرأة تبحث عن حب مفقود.

الهواء يصارع نفسه في أعماق المدينة , يهب عليها من كل الجهات , كأنه يريد ابتلاعها بصفير حاد , غاضب وصارم , والتراب يتساقط بغزارة على الرؤوس المبهورة , و يغطى أسطح المنازل والمساجد , يغمر فناء المدينة بالعتمة، ويتحرك إلى الضفاف الأخرى , يعبر الشوارع , الأرصفة،الحارات، وجوه الناس ، يغمر الجدران , الأشجار , ومقابر الأجداد , يغمر كل شيء مدفوعا برغبة ما ، غاضبة وكئيبة , في جو رهيب.

الرجال والنساء والشيوخ , يركضون إلى مساكنهم , مثل فئران مذعورة , يغلقون الأبواب والنوافذ بأصوات تتوحد في صندوق الذعر: غضب عارم حل بالمدينة الطيبة.

من الداخل تأتى أصوات الشيوخ غامضة , الأصوات الأكثر ارتفاعاً ويأسا , يصرخون في ضجيج الأشياء حولهم , للسماء سطوتها وللريح جبروتها وللأرواح حبورها وخوفها , يعبئون الكئوس المكسورة بالتعاويذ والبكاء , يضيفون خوفا على خوف , الأطفال ينسلون من مساكن آبائهم خفية , يركضون في الحارات , كأنهم يحتفلون بضيف المدينة , في مهرجان بهجة وشرود وخوف لذيذ , يرقصون في الحارات للذي دخل مدينتهم ممتلئ الفم بالكلام ، يركضون في الشوارع وتحت الجدران , يزفون وقتهم إلى حرارة أخرى مكتنزة , عذبة وجريئة في عرس كأنه موصول منذ آلاف السنين.

يزفون الغبار العالق بثيابهم وشعر رؤوسهم , إلى جدران أعمارهم المدهونة بفرح أصابعهم الصغيرة , يقرءون أسماءهم وتواريخ ميلادهم ساقطة تحت الجدران أكواما سوداء.

الريح تتجه جنوبا تقود تراب المدينة , وتزيح بعضا منه عن قرص الشمس , وتبدو في خروجها المهيب كما لو أنها عروس من النار.

الأطفال ينفضون التراب عن شعر رؤوسهم وثيابهم , وأصواتهم القديمة , يرشون الماء على التراب الذي بدأ في الركود , يعجنون الطين من جديد , يتذكرون أسماءهم القديمة وتواريخ ميلادهم , يرسمونها على الجدران الخرسانية مرة أخرى , الجدران التي صارت أكثر بريقا تحت شمس ساطعة وجديدة , يمرون بأصابعهم

على الجدران المدهونة بأحلامهم الطفلة , يغنون بصوت واحد للمدينة , للشمس , للريح , وقبل ذلك يقولون للناس:

اخرجوا من منازلكم ، لأن الريح لم تعد ريح.

رجلان ..

للمكتب الحكومي الوثير طعم رائع، إذ تأتيه الأوراق وتخرج بيضاء لامعة، الباب واسع للزائرين , وكاسات الشاي تتقاطع في اتساع الوقت , خضراء لذة للشاربين .

للوقت البارد رحابة تأخذ شكل الرتابة والأمان , وكسل مرح يدير الرؤوس ويحنيها, وها قد عاد إلى وقته من جديد , يتمدد فيه ببذخ المترفين.

بالأمس كان يلبسه فتضيق أطرافه المشتعلة , واليوم يلبسه واسعاً فيرى النور والبهجة.

عاد ليقول بنزق مترف , إنه فقط بحاجة إلى أن يرتاح، غابت سماوات أكثر غيماً, وحضرت سماوات أخرى , و يركض خلفه لقب جميل مترع بالكبرياء , وجد بزهو بالغ أن كل شيء أصبح أكثر جمالاً, وأدرك بغبطة عميقة أن كل ما كان يؤرقه وما لم يحسبه له حسابا هو الوقت , السيد الكبير الذي عليك أن تقطع أوصاله , متفانيا بالعناية بنفسك ، وجسدك , وروحك المريضة بهموم الآخرين ، وشعر أنه قادر على التعايش مع واقع جديد بحماس طفل , بدأ ينمو ويشتد عودة , فأسلم نفسه لموجات عارمة من الفرح , راح يتدهور خلفها برقص كهل ، أثث البيت القديم ، واستلم أوراق منصبه مع عباءة بلون البيج تزين أكتافه ، مدير فرع جديد للمؤسسة الثقافية والفنية , ثم مضى هادئاً يمشي بأقدام مسئول , يقطع كل

دروبه بالبهجة اللذيذة التي تلطف صدره , يمكث في المكتب الباذخ ويعود إلى منزله بروتينية محببة إلى نفسه ، يسبح في الوقت الذي بدا له واسعاً ينفقه مهووساً بالشعر والموسيقى والمرأة , يدحرج صورة وجهه وهوسه على صفحات الجرائد , والمجلات الفرحة بحضوره الكريم , ويعود إلى منزله بالروتينية المعتادة المحببة , ظل هادئاً جداً ، كما لم يعتد أصدقاؤه ، مدير مسئول يذهب إلى مكتبه من أجل أن يعود فقط , مستمتعاً بلذات عديدة , وكان يبدو أنه لانهاية للطريق المليء برائحة الهواء الطري , وهو يسير بجسده الكبير ، أطرافه الحمراء ضخمة تبرز من ثوبه في الحي الهادئ الذي يبدو له كما لو أنه لا يحضن سوى منزله , ومكتب عمله , دقيقة من المشي بين البيت والعمل, وأمام هذه الحياة الجديدة ضاع كل شيء , وصارت تستغرقه دائماً نشوة فادحة ويغمره شعور مستمر بالغبطة , يأخذان كل وقته السخي , وينحدران به إلى عالم من التأملات والآمال , عالم لا يكون فيه الإنسان إلا خليطاً من الشبع والراحة , أو مزيجاً من كبرياء مغرور وفرح يبتهل أن يدوم الرخاء , وترف الرأس الذي لا عمل له.

إن كثيراً من المصادفات تحدث في أوقات غير لائقة , هذا ما استغرقه في ذلك المساء ، وهو يعود إلى منزله متأبطاً عباءة صفراء منقوشة , في الصباح هاتفه المسئول ولم يجده , مضى شهر على تعيينه ولم يهاتفه أحد من هؤلاء , انعطف إلى الشارع الآخر وكانت تبدو لها لانهائية الطريق الذي رسمه وأصبح يسير الآن

فيه , الأمر الذي فتح النافذة واسعة , أمام شاب كان يسير خلفه , أن يحدث نفسه قليلاً , ثم يتقدم منه ويسأله بمفاجأة:

هل هذا هو الشارع الذي يؤدي إلى منزلكم يا أستاذ؟

اهتزت كل صور الهدوء في نفس الرجل , وهو يتوقف أما السؤال , ثم ما تكاد تمضي ثوان حتى يلتفت , ينظر في وجه الشاب ثم يبتسم:

نعم يا عزيزي هل تريد شيئاً , ثم يتابع طريقه , مضى بكل الهدوء والاتزان والألفة , حتى وازى الشاب خطوته وبادره :

أرجو أن لا يكون الطريق متعباً لك؟

رد بحماس وضحكة على وجهه:

- أبداً .. أحتاج إلى خمس دقائق لأصل إلى المنزل.

قال ذلك وهو لا يدري إذا كان يود أن ينتهي فوراً إلى منزله , أو يستمر الشارع طويلاً إلى ما لا نهاية.

ذلك إن خواطر مليئة بالريبة , بدأت ترسم لوحات ملونة على وجهه المدور السمين , فقد عرف أن الشاب أحد طلائع المسرحيين بالفرع , واحد الذين وافقوا على عدة بيانات رفعت إلى المسئولين , يريدون النهوض بهذا الفن (العظيم) على حد تعبيرهم ، وغادرته فوراً حالة الهدوء , ودون أن يدري أسرعت خطواته المرتبكة , وهو يرمي الشاب بنظر مخاتل يختلسه اختلاساً , صانعا على شفتيه ابتسامات ملونة .

تقدمه الشاب قليلاً في خطوات أكثر اتزاناً , ثم توازت الخطوات.

قال الشاب:

- يبدو أننا سنتعود روتين المشوار اليومي.

- هل أنت قريب من هنا ؟

- نعم منزلنا في نفس الحي وقريب من فرع المؤسسة التي نعمل بها .

لم يشعر الرجل باقترابه من الشاب وهو يسير ليسأله ؟

- هل تعمل معنا في الفرع .

- تلميذكم ، قرأت لك كثيراً من قبل !!..

وفرحنا لك جميعاً بمنصبك الجديد .

وأضاف الشاب بصدق وحرارة :

- لدينا الكثير من المشاريع المسرحية , وهي تنتظر مباركتكم ,

ثم وهو يزداد صدقاً وحرارة عفويتين:

- لقد بالغ المدير السابق في الإساءة لأكثر أعمالنا , ولم يستوعب الكثير من طموحاتنا.

ولم يفطن الأستاذ لبعد كلام الشاب ، والخطوات متوازية تماماً , في الطريق الذي يتمنى الشباب أن يمتد إلى مالا نهاية وكان قلبه يخفق بالفرح , إذ يكفى أنه يمشي جوار هذا الرجل ذو الوجه التلفزيوني , ويقدم له مشاريع الشباب التي رقصت في

صدورهم منذ زمن طويل , كان يتحدث بينما خطرت في بال الرجل أشياء كثيرة , راح معها يغرق في تأملات قبضت روحة بشدة , وفكر مع نفسه وهو يستمع إلى الشاب دون أن يعي ما يقول تماماً ، وكان يرميه بنظرة جانبية ويحدث نفسه : يعني أنا أصلح للفرع ، وامتلأ بخليط المشاعر المرتبكة . لأول وهلة شعر بسعادة من نوع رائع ، ملأت صدره , لم تلبث أن صارت إلى كآبة عميقة أحس معها برغبة هائلة في البكاء , كلمات من نوع : تصلح للفرع , ننتظر مباركتكم لأعمالنا , كانت كافية لإرباكه وهو يتذكر ماضيه المتوثب وحاضره الرسمي البارد وأموال مشاريع الفرع التي قبض عليها دون وجه حق , رسم على وجهه ابتسامته المكتبية الصفراء ، ورد باقتضاب بعد أن استعاد نفسه : ليس كذلك بالضبط .. إنما !!

لكنه لم يتم ..

بدأ يحسب لإدراك الشاب الذي أمامه ، وهو يرى شاباً قديماً ينطلق فجأة من أغوار سحيقة في داخله , أيقن أنه لا ضرورة لتبرير أي شيء , ظل فقط يتأمل وجه الشاب المترع بالحماس , ويرى وجهاً قديماً له فيه , وهو يحسب مرة أخرى أنه أدرك معنى صمته ، ولكنه رأى في عيني الشاب عتباً عميقاً , عتباً بريئاً يزخر به هذا الوجه المتوثب.

أراد الشاب أن يتحدث , قال كلاماً كثيراً , الأستاذ يقاطعه ، ودائماً كلمات من نوع: ليس كذلك بالضبط .. لا تكن مبالغاً ..

لم يستطع الشاب أن يستمر , بدأت خطواته تثقل أمام ردود مدير الفرع , صغرت خطواته وهو يرقب خطوات أستاذه تتجاوز , مكتفياً بصورة رسمها في رأسه لوجه اخر رآه يلمع في وجه الأستاذ , وقد عبر عن ذاته بسرعة من داخله , ربما دون أن يدري غاصت بقية كلمات الرجلان في أعماق ملتهبة مشلولة , لا تستطيع البوح.

لوحة تشكيل ...

دخل الوقت في رماد ثم في عتمة في سواد ، وهو نائم بخوف ، وهي على كرسي نظيف , أمام طاولة زجاجية لامعة , تحدق في لا شيء ، وتنتظر حركة في الغرفة المجاورة.

ربما يفيق الآن ...

كان لها اسم فرحى وقلب فرحى ولون سعيد، وصوت وردي مشبع بفرحة كل الأصوات، كان لها ضحكة تأتي دائماً عبر فتحات البيت من تلك الطفولة، وكانت لها ذاكرة متفجرة .. وكان...

ربما يفيق من هذه النومة الطويلة ، يخرج ، يطلب مني كأس (شاي) , أو ربما يخرج ويجلس إلى ، يحدثني عن متاعبه ، وأحدثه عن متاعبي ، ثم نضحك بفرح ، يبدد هذا الفراغ الهائل في وقتنا.

وها هو الوقت دخل رماد الوقت، سواد الوقت، ها هو الليل يرخي جدائله العظيمة ، فيمنح الأشياء ظلمة وعظمة ، وهي على الكرسي تلف المكان بكسل وتراخ، تلف

أشياء المكان ، تبعثر أشياء المكان ، تعيدها إلى أماكنها ، وهي في مشروعها هذا ، ربما ترهف السمع إلى الغرفة المجاورة.

ربما يخرج الآن، أو يفيق ولا يخرج، يقبض على لوحته أو على أوراقه.

ما أقسى الوقت...

وما أقسى أن يخرج أخيراً، يصل الصوت إلى رأستها المعذب فتملؤها لحظة ابتهاج صغيرة، تمتزج مع هزة رعب صغيرة في صدرها.

وها هو قد استيقظ ، ترك غرفته إلى الحمام، ثم عاد إليها ، يغير ملابسه، يخرج إلى بهو البيت الصغير، عيناه آثار للنوم ، وخلفه أثر من كآبة وجوع وأسئلة ، يلف المكان بنظرة سريعة ، الطاولة ، (الشاي) ، الكرسي ، هذا الكيان الذي يجلس على الكرسي ، كل شيء في لحظة عابرة ، كل شيء صامت، وهو يخرج من البيت بطيئاً وساهما وحزينا مثل مريض.

لكنها لم تكن أمه ولم تكن زوجته ، ولم تكن لوحة رسمها منذ تلك الأزمنة القديمة.

الرحيق

كنت متعباً جداً، أقاوم رغبة متسلطة في النوم، نهضت بنصف جسدي الأعلى, وقلت لها كما لو أنني أغني.. أو أتم حكاية:

أستطيع أن أضغط زراً صغيراً لترى بعينيك الجميلتين – اللتين سيأكلها الدود يوماً – كيف تستحيل هذه الغرفة الصغيرة إلى بهو، ولكن فيما لو حدث أن تبدل شيء, في تلك اللحظة التي انصببت فيها صبا من جسد إلى جسد, لو حدث أي شيء, لغني عن القول, أن يظهر إنسان سواي، وهذا لا يعني شيئاً قليل الأهمية، إذ أن هذا الخاطر الذي ملأ رأسي, ما زال يحفز روحي أكثر لرحيق الأشياء.

ثم ألا ترين.. ؟

هذا الطير مثلاً، إنه فرح ببيته، ولكن أخرجيه وضعي مكانه قطاً، سوف لن يكون بميسورنا أن ننام بهدوء الطيور.. يا حلوتي.. وأنا كونتني الحرية. مثلما كون الاضطهاد. هذا الطير.

وقد مررت بفترة سوداء خشنة، لا أستطيع استدعاءها أمام أصدقائي الجدد وهم – كما لا يغيب عنك – نشأوا في الترف والفساد و الرحيق, ففي تلك الفترة الزمنية البعيدة, لعنت روائح الأجساد الفقيرة, وكنت لا مبالياً عنيداً, وكان إحساسي بالجسد قد بدأ يكبر , فضاقت روحي, بهذه الغرائز المكبوتة، وأثقل لحمى على الروح البائسة.

ولهذا دخلت..

وليس بالأمر الهين أن يدخل إنسان مثلي نبت في ما يشبه الحضيرة, وأقول لك: ضحكت إذا دخلت الحياة الجديدة, قرأت للعزيز

(فرويد) كي أحلل نفسيات الأصدقاء الجدد وأعرف مرادها بإيماءة، أما ذلك الرجل الذي منحني الضوء الأخضر للدخول فلم يكن غير إنسان مغفل, وكنت أطبع له كروت المعايدة مشيداً بذكائه النادر وحنكته العظيمة وخلقه الرفيع, ولم أكن لأفصح عن تلك الأحلام الكابوسية التي كنت أراه فيها على هيئة عقرب غبية , وهكذا بلغت، أول درجات السلم ، ورحت خفية أتسلل وأصعد الواحدة تلو الأخرى , حتى رأيت وجهي لامعاً من خلال شاشة التليفزيون , يلوح بكفيه للمواطنين كما لو أنه بطل حقيقي , وبابتسامته التي صارت مألوفة.

هذا وصلت.

آه يا حلوتي.. كنت أبحث عن حظي في الحظائر, ولم أدر أنه هناك.

لقد آن أن أمشي تحت الأرصفة فلا أقرأ لافتاتها، وأن أحفر بأظافري في هذا الحائط الطيني الذي كنت أراه صخراً، لقد آن أن أحلب هذه البقرة الحمقاء التي حلبت وجودي, آن... أن ننام بهدوء الطيور.

يا حلوتي.

كنت متعباً جداً, أقاوم رغبة متسلطة في النوم, عدت برأسي إلى الخلف مرة أخرى, وكنت أشعر كما لو أنني أستنشق السعادة, بل ألمسها بيدي الناعمة جدا, في وقت كنت أراها بجانبي وقد اشتعلت حباَ ً ساخنا

متتاليات ليلة البارحة

نمت جائعاً وظمآن ، قرأت في كفي غزالة , وأيقظتني , فضحكت ملء فمي: يا وجوه قاع الكأس.

صحوت جائعا وظمآن ، فتحت القلب للهواء والنهار، كفاي خطوط بلا انتهاء، حدقتّ في تعرج خط من رأس الإبهام حتى الذراع , فإذا نهر من ماء مغشوش ، أطلب كسرة من نجمة ساقطة ، تختلط اللعبة بأغنية بدوية عن ثورة جبل , أفاقت على صوته مدينتان وشمس, وكنت أحدق في خط تعرج من رأس الإبهام حتى الذراع.

نهضت في صباح شقي ، مشيت فلم أبصر غير الجدار، اصطدمت بفتحة الباب الواسعة , فسقط ذراعي في الهواء , وتبعه جسد موبوء بمرض الفقراء ، وقعت على الأرض، نهضت ، فتحت النافذة فرمتني جارتي بوردة بنفسجية للصباح.

دخلت غرفة البارحة ، رأيت بقايا في كؤوس متسخة وضجت روائح العفن, حدقت في قاع كأس فلم أر وجوه الأصحاب ، رأيت كسرة من نجمة ساقطة ، ومسافة حزن بيني وبين ليلة البارحة.

البارحة عصرنا القوافي واستمطرنا الشعر وشربنا نخب الصداقة ، ذهبنا في الفرح وكانت الأسئلة الكبيرة تنهزم والوقت بديعا، تحسست فيه شيئا من دفء في عيون

حاضرة يملؤها فرح بشري طهور، قلنا ندخل معاً قاع الكأس والمدينة لامعة تشع فينا، استحضرنا الأرض مسطحة , وكان وقتاً حلواً فلا الأرض كروية والوقت مدى طويل ، من فتحة النافذة أطلت وردة ، قمت إليها قبل أن يبين سهيل , فصبت في عيني حزنا من عينيها وولهاً كدت أضم شواطئه القمرية الأنيسة ، وعدت أربط وجوه قاع الكأس بخاصرتي.

كنت البارحة فرحا ، رأيت فجوة ترسل أشعة ذهبية تغمر الوجوه حولي , وسمعت الأصدقاء يهتفون بفجوة المستقبل , ويحفرون بأظفارهم في الحائط ، وكان وقتا حلواً ، غمست إبهامي في كأس ملآن وجئت به على صدري ، ضغطت بقوة ، رفعت إبهامي ، رأيت نهرا يجري ويغمر ذراعي.

والبارحة يا جارتي أخلفت ثلاثة وعود ، تركت المدينة والناس ورتابة طقوس الدخول والخروج اليومية ، بلا أي شيء ، وعد يعقد قرانا وآخر يفسخه وثالث ، وجدته ينسل خفية من خيط الذاكرة ، وأحدثك عن وقتي التالف فأرضي دوما مسطحة ، والشمس تجيء وتغادر دون أن أراها فقد لففت كل شوارعنا الصغيرة والكبيرة مراهقا وكاد يخدعني طريق واحد للحياة لم أر سواه في هذه المدينة ، وبدأت في غرفتي الصغيرة آكل كل الطرق ، وأفلس وجودي المشطور بين غيمه لا تأتي واشتهاء وجهك العائد دائما من شوارع خاوية لا تنتهي.

قلنا في البارحة المزهرة : من يسقط حين يبين القمر يسمى قمراً ومن يسقط حين تسطع نجمة سهيل يسمى سهيلاً ، رأينا سهيلا يتكئ على صمت وعروق دمه خضراء ثائرة في وجه صيرته الكآبة شاحبا لا يعكس ضوء المكان ، ونجمنا الخافت رجل منذ طفولته ، سطعت العبقرية في عينيه طفلا ومشى ، لكن أشجار المدينة ويا للحزن ، تحركت وراحت تجر جذورها في وجهه فجعل يصدم الواحدة تلو الأخرى حتى انكسر وجاءنا يستريح من عناء عمر صغير شقي ، وبحجم بؤسه صار يركض مهووسا وينثر حلمه المكسور بيننا.

كان سهيل يسعف الوقت الرخو المتهدل على أكتافنا بأغانٍ يتبعها قمر من أول الليل.

صحوت هذا الصباح جائعا ..

لا يرى القلب من نهاره غير الضوء ، ولا ترى الاحداق غير نافذة موصدة غائبة، وبقايا كؤوس وسجائر محروقة ، كفيّ معلقة وإبهامي تجري مياهه الفاسدة.

غفا قمر في منتصف ليلة البارحة فاستعرنا من نوره أخبار المدينة ، فإذا عصافير ظمأ راقدة في إعشائها ، منذ احتلمنا ما لبسنا فيها ثوب احتفال ، وكانت الغرفة محمولة على أكتافنا فتعشب أجوافنا تعباً.

نهض قمر ومشى مجدفاً بيديه وضارباً الأرض بقدمين رخويتين : سوف آكل رأسي يا سادتي .. وقال متقدما خطوة أو خطوتين : أهلا .. ما هذا .. قلنا : قفص

العصـافير .. وكـان نائمـا .. قـال وهـو يرتـد للخلـف : إذن هـذا هـو .. إذا لـم تكـن مريضـة هذه الطيور أكلت رأسـي ، ثم قهقه بقوة ، وقبل أن يترنح ويسقط فتح بـاب القفص وأطلق العصافير.

وعـن قمـر أقـول لـك إنـه الأرض المباركـة التـي لا تنجـب إلا بضـرب الفـأس ، لغـة العصـا الأجدر من كل اللغات ، وهو أيضـا ضـحية لغة فاسدة ، وحديثة عن الهلوسة أو الخوف.

في البدء سقط سهيل وتبعه قمر وكنت مفيقا حتى التعب ، خفيرا على حلم طويل، طويـل ، ووجهك لـم يظهـر هنـاك ، أركض ولا أجـده ، قلـت : ضـاعت فـي المدينـة وردة ، وأنا أعرف مدينتنا.

صحوت جائعا وظمآن ..

ليس سوى بقايا كؤوس متسخة ورائحة عفن وجسدين متقاطعين لقمر وسهيل وقفص مفتوح هربت عصافيره.

حدقت في الكأس الملآن فإذا كسرة من نجمة ساقطة ومسافة حزن أو حزنين بيني وبين ليلة البارحة.

لحظات نقدية حول إذعان صغير ...

رؤية نقدية مذعنة للنص...

أحمد بوقري/جريدة اليوم

يقول لوكاتش: إن هدف القص اكتشاف وبناء صورة للواقع تعمد إلى حل التناقض بين الظاهر والماهية ، وبين الجزئي والكلي وبين المباشر والمفهومي ، حلا من شأنه دفع طرفي التناقض إلى الالتقاء في تكامل تلقائي داخل الانطباع المباشر للعمل الفني. فالكلي يظهر باعتباره صفة للفرد والجزئي ويصبح الجوهر متجليا باديا. ويترتب على ذلك أن النص الأدبي يقدم سياقاً متكاملاً محدد النطاق قائماً بذاته . أي أن العمل الأدبي يخلق عالمه ، ويذهب لوكاتش كما يقول الناقد إبراهيم فتحي :(إلى أن هذا آلا تناظر الظاهري مع الواقع هو الوهم الجوهري الضروري الباطن في الفن).

على ضوء هذا الاستهلال النقدي للوكاتش سأتلمس طريقي إلى داخل النص وعبر مساراته المتقاطعة وفي قراءتنا لمجموعة (فهد العتيق) القصصية الجديدة تأخذنا لغة القص ببساطتها المتناهية والدقيقة والمعبرة عن اللحظة الدرامية بشفافية رقراقة إلى واقع منزاح عما هو سائد واقع تخيلي لا يعيد ما كان موجوداً سلفاً بل ينزاح عما هو سائد في معاييره . ليحقق معاييره الجمالية الخاصة ذات الصفة الفنية المغايرة التي يتمنع من خلالها النص القصصي على

القارئ ويفتح له أفقاً جديداً لا يستجيب مع ما يتوقعه القارئ من النص وهذا ما يمنح للنص القصصي سره وجماليته.

وتنفرد قصة (إذعان صغير) عن بقية قصص المجموعة في أنها ذات بنية سردية فنية دائرية تنتهي وتكتمل من حيث بدأت . وتتحقق في هذه القصة خصائص القصة القصيرة الجمالية أكثر وضوحاً من الأخريات من حيث توفر الحدث ، والشخصية واللحظة الدرامية المتواترة (الذروة) والبعد الرؤيوي أي الموقف الفلسفي. وبقية القصص لا تبتعد – بالطبع – عن خصائص القصة القصيرة هذه كليا وأن كانت تطرح بعضاً منها ويغطي في بعضها البعد الرؤيوي المحمول باللغة الشعرية والمفردة المنحوتة من الذات القلقة لتعبر عن رغباتها الصغيرة واحباطاتها وتوهماتها الخاصة كما في (نصوص صحراوية) القصيرة ذات اللقطات الدرامية السريعة والخاطفة.

وعندما كنت ابحث عن دلالة عنوان القصة (إذعان صغير) فقد أصبت في الحقيقة بالخيبة. والخيبة هنا أتت لأن النص لم يقدم لي ما كنت انتظره وفق معايير جمالية ونقدية محددة كمتلق له لذا فهو نص مختلف وهذا سره وجماله كونه يفتح أفقاً جديداً أو يدفع في اتجاهات أخرى لقراءته . وهذا ما كان.

وكما قلت فقد ترك عنوان القصة (إذعان صغير) تساؤلاً في مسار قراءتي للنص: لماذا إذعان صغير ؟ لماذا لم يقل القاص مثلاً: (إذعان كبير) أو (إذعان ما) أو (إذعان جميل) أو .. أن إضافة الصفة أو الحالة التي عليها الإذعان لها دلالاتها في اعتقادي ، والبحث عن هذه الدلالة الفنية في القصة هو البحث عن مستوى الواقع الفني الذي خلقه النص في حقله اللغوي وشكله الفني ، وعلاقة هذا الواقع الفني بالواقع الخارجي وفعل الانعكاس آلا تناظري الذي أنجزته العملية الإبداعية في محصلتها الأخيرة.

فالإذعان المعطى في النص هنا في واقعة الجديد هو في ظني تصغير للإذعان الحقيقي كما هو وصورة مغايرة له .. فالمبدع لا يحاكي هذا الواقع الخارجي في حرفيته بل يأخذ منه – أثناء العملية الإبداعية – ما يريد ويترك ما لا يريد ويصغر المبدع بحاسته البصرية الدقيقة ما يريد تصغيره ويضخم ما هو ضئيل أو غير مرئي في أشياء الواقع والحياة كما يراها أمامه أو يعايشها وينزع منها مادته القصصية . وما يشكله النص الفني من واقع جديد أو عالم مستقل هو نسبي جداً أو عالم مستقل هو نسبي جداً ولا يتطابق معه بالضرورة وأن اشترك الواقعان في منطق الصيرورة الداخلي وفعلهما وفي السببية الموضوعية/ المادية وتحولاتها اللذان يحكمان بالضبط علاقات الواقعين الفني والموضوعي مستقلين عن بعضهما البعض..

ولقد أنجز النص (إذعان صغير) في شريطه اللغوي وفي سرديته المتسقة وفي حواراته واقعه الفني/ المعادل بشكل لا تناظري ، هو واقع المبدع التخييلي كما يراه وكما يفهمه ، وهو لم يكتف بهذا اللاتناظر الانعكاسي ، وإن اكتفى النص به كما هو في نصوص أخرى تحقق – في الواقع – للنص غاياته الإبداعية ولا اكتملت العملية الإبداعية للنص ، إلا أن القاص تجاوز بنصه/ بواقعه الفني الجديد إلى فعل الانعكاس الصادر من ذاتية المبدع ورؤيته الفنية وما هذا الفعل الجديد إلا حلم اليقظة الذي اختتمت به القصة ، الفعل الذي رأى فيه البطل/ المذعن نفسه ، يبيع الحمام الجميل لجاره ولمدير مكتب الحقوق فيحول بذلك الإذعان الذي خضع له من أجل الآخرين إلى جعل الآخرين مذعنين للحالة التي عاشها قبلهم وسببت له فعل (الإذعان الصغير) وما إذعان الآخرين هنا إلا إذعان حلمي ، أكثر صغراً ، أكثر ضآلة وأكثر متعه (كونهم يتضاحكون في وجهه) وفعل الإذعان الجديد هو واقع مصغر جديد لا تناظري لواقع فني لا تناظري سابق ، واقع منمنم أكثر جدية ووضوحاً وصغراً لإذعان جميل وصغير لمعني الحياة ولمعني الحرية الذي تدل عليه وتطلقه أجنحة الحمام في فضاء الحارة الذي يكبر فيه الإذعان ويتسع ويتمدد . وهكذا يصبح (ما هو صفة للفردي والجزئي صفة للكلي) ويصبح (الإذعان الصغير) ما هو – في

الحقيقة إلا نواة لإذعان كبير معطى في الواقع الموضوعي ، العالم الخارجي للنص.

تقنيته أنقذت القص من الغنائية ..

وليد منير /جريدة الحياة

في مجموعته القصصية الصادرة عن سلسلة مختارات فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب نيسان (أبريل) 1992م بعنوان (إذعان صغير) يحاول القاص السعودي فهد العتيق أن يصفي نسيج السرد القصصي من كل ما يمكن أن يعلق به من تشويشات تنتمي إلى مواقف الخارج ، على رغم كونه لا يعزل الواقع الخارجي عن الأعماق الداخلية للانا عزلاً تاماً ، فهو يصر على تقليب تربة الباطن تقليباً دائباً في مواجهة حدث بسيط جداً ، قد يكون ملموساً أو غير ملموس تثيره بشكل منفصل ومكثف دواعي العلاقات الخارجية ، أنه يقوم بما يسميه منظرو الدراما فعل التصدر وهو ترجمة للمصطلح المعروف (Foregrounding) ويعنى التركيز المتعمد على عنصر بعينه من دون بقية العناصر وتقديمه في ضوء جديد يلفت النظر إليه ، وما أشير إليه هنا هو عنصر الداخلية بما ينطوي عليه من دلالة نفسية بارزة ، ويسبق هذا العنصر كل وجود خارجي ويتأكد على حسابه ، لمثل هذا الوجود الخارجي مساحة من الضوء تعطي الداخل مظهراً جديداً ومعنى طارفاً.

الحدث الخارجي ليس سوى مناسبة مواتية لانفجار التداعي الباطني وتدفقه في غير مجرى الواقعة الحياتية مثير أولي فقط للمشاعر والعواطف والانفعالات الوجدانية المتشابكة التي تفصح عن نفسها في لغة أقرب إلى صورة المونولوغ ومن ثم لا يشغل الحوار القصصي إلا مكاناً ضئيلاً من عالم القصة.

يقول في (شروق البيت) (رأيت أن أمي مشغولة فركضت إلى باب الشارع لأرى كيف تأتي شمس الصباح على شارعنا الصغير ، فتحت الباب ، وكما لو أنني أراه لأول مرة ، بدا لي لأول وهلة أنه شارع أخر لا أعرفه ، وجدت أن الشمس تأتيه من الجهة الأخرى ، من الشرق ، أليفة طازجة وجميلة ، وأدركت بعمق الإحساس كم أنا غائب عن أشياء رائعة ولها طعم خاص).

هذا هو النموذج التعبيري الشائع في قصص المجموعة كلها: لغة تجهد في صيد اللحظة الشعرية وتتحدث عن حالة ، وغالبا ما تتجسد هذه الحالة عبر تأمل الراوي ذاته ، وينطوي هذا الفعل على اكتشاف ما: أن الذات تستعيد وجودها البكر حين تنجح في رأب الصدع بين شقيها المنفصمين ، الذات تثبت زمن اغترابها في المرآة لكي تستطيع أن تجاوز محنة الاغتراب وتنفي ثنائيتها ، وتؤدي هذه الثنائية التي تكشف عنها الذات إلى تعميق النغمة المريرة في وصف حالة الاغتراب ، أنها الغيمة الداكنة التي تمطر في قصص فهد العتيق وتنقذ منحى القص من الوقوع في شرك الغنائية بالكامل.

يقول في (فصل غامض): (عدت إلى البيت في الثالثة ظهراً لأجده كالعادة في انتظاري ، صامتا ، بوقفة مهيبة ، وضعت الصحف جانباً ولم أجلس لأكل ، مضيت إلى غرفتي بسرعة ، لم أخلع ملابسي ،ولم أدخل الحمام ، اتجهت رأسا إلى السرير ، رميت جسدي وفتحت جهاز التسجيل ، كما لم أكن معتاداً ، وأثرت هذا اليوم أن أنام على ظهري ، ويا لله أية راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم) ؟!

الصمت والوحدة ، والتساؤل والفرح بكسر العادات البسيطة والتأمل الذي يتأرجح بين اللذة والاكتئاب ، تجليات مكتملة لتجربة فردية ذات طابع وجودي حاد بالغ الاستبطان.

ولنتذكر معا السمات النفسية الشبيهة التي ميزت لغة فرانز كافكا في يومياته التي تنضح اغترابا وحسرة ، لنقرأ من كافكا: (للمرة الأولى منذ وقت طويل اعتراني شعور البهجة هذا الصباح لأنني تخيلت صورة السكين تتلوى داخل قلبي. نظرت إلى وجهي في المرآة بإمعان شديد ، وكنت أرغب في إخافة نفسي في ما كنت أراقبها. الآن ، في التاسعة والنصف مساء ، ثمة شخص في الشقة المجاورة يدق مسماراً في الجدار الذي يفصل بيننا).

عالم فهد العتيق هو عالم الهزيمة الشخصية ، والحلم ، والتفرد والانطواء على التيار الباطني للأفكار ، ورفض الخارج بما يحتويه من انكسار وقسوة معاً ،

والإرهاص ، والتوجس ، والخوف ، والشفافية الموجعة للروح ، وهو ينكر ، في بساطة أن يكون غير ما هو عليه ، وأن يذعن لقهر السلطة الاجتماعية التي تتمثل في الناس والوظيفة والعادة والأعراف المسبقة . بيد أنه يميل في كل ذلك إلى نوع من التحدي الرومانسي، المبطن ، وهو ما تكشف عنه اللغة في شعريتها ، وفي احتضانها أسرار الرؤى الذاتية المحض ، وفي انفلاتها من وصف التفصيلات الدقيقة لآليات القمع الإنساني داخل الواقع الذاتي شديد الصلابة والخشونة ، لنقل أن لغة فهد العتيق في هذه المجموعة تحن إلى المثال الأخلاقي الفردي كما صاغه الوجوديون ، وأنها تؤسس استعادتها الواسعة انطلاقاً من المقابلة الحادة بين الجدب والخصب ، بين الصحراء القديمة والينبوع ، دالة بذلك على ذوق مرهف إلى مجاوزة الضرورة ، وامتلاك ما خلفها من إمكانات الحرية واحتمالاتها.

إذعان صغير ..

عبد الله باجبير

اقرأ قصص الصديق العتيق المتجدد فهد العتيق فاتذوق طزاجة القص.. واستروح نكهة الاصالة البكر.. ثم اتذكر الكاتب الفرنسي جورج دوهاميل صاحب اعترافات منتصف الليل!! نفس الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة في حياتنا.. التفاصيل المهملة التي لا يراها الا فنان يعيش بين الحقيقة والوهم.. وبين الواقع والخيال.

كانت امنية بطل دوهاميل ان يقرص اذن رئيسه في العمل .. كان يرى شحمة اذنه المتدلية فيتحرق شوقا لقرصها.. واخيرا قرصها واستراح.. ورفدوه او رفتوه من العمل وعاد الى امه خائبا.

وتستطيع ان تقول ان العتيق ودوهاميل لا يكتبان عن موضوع.. انهما يكتبان عن حالة.. حالة رجل صغير في مصرف عند دوهاميل.. حالة رجل اخر صغير يحب الحمام.. اي يحب السلام.. ولكن جيرانه يشنون عليه الحرب.. وتنتهي الحرب امام مدير مكتب الحقوق المدنية.. وهناك يصدر القرار.. الخلاص من الحمام.. ويذعن الرجل الصغير.

ليست هناك علاقة موضوعية بين القصتين.. ولكنك تشعر انك امام حالة .. حالة الرجل الصغير المذعن. الاشياء الصغيرة اذن هي مادة شغل هذا الكاتب المدهش.. والانسان شيء ايضا.. و«كان الإنسان أكثر شيء جدلا» صدق الله العظيم.

في اقاصيصه اطفال كثيرون.. اشقياء.. ابرياء.. انه يلتقي بالحياة في طفولتها البكر.. وفيها اباء يذكرونك بالتاريخ.. واكثر ما فيها هؤلاء الرجال الصغار الذين تسحقهم حقائق الحياة واجراءاتها التي تشبه التروس التي تقود الانسان او تفرمه فلا

يستطيع منها الفرار.. انه يرسم بالزيت كثافة الوجود المعقد.. ويرسم بالماء شخوصه الهشة.. وتستطيع ان تتذكر تشيكوف ايضا، وكافكا بلا شك.. هناك بساطة تشيكوف الدالة، وهناك كواليس كافكا المرعبة.

لا تستطيع ان تلخص قصة من قصاقيص العتيق، فقد قام هو بالتلخيص واعطاك اساس الحياة مركزا ونفاذا.. اريد ان اقول ان العتيق محارب بالقلب يطلق رصاصه على الواقع، ولكني اخشى ان استخدم طلقات الرصاص في هذا الهمس الفني.. انني اجدد اعجابا ابديته بمجموعته الاولى «اظافر صغيرة جدا»، وسأتمسك بهذا الاعجاب كلما قرأت له.

عالم حلمي متشوق للجمال

مختارات فصول / الهيئة المصرية العامة للكتاب

فهد العتيق من السعودية صوت من الأصوات الأصيلة حاملة الحلم القديم المتجدد ، واستخدام كلمة (الحلم) هنا ليس مجازاً ولا هو استعارة , فقصص اذعان صغير لهذا الكاتب تأخذك من البداية إلى عالم حلمي تمتزج فيه دقائق الحياة المعاشة مع خيوط انفعال وجدان مرهف , مع تفاصيل يخلقها عقل ناقد متشوق للجمال والحق , وهو أيضاً مترع بالأسى لأن وجودهما لا يكتمل ، وتبدو كتابة هذا الأديب في هذه المجموعة المدهشة من القصص وكأنها تسير على صراط مستقيم , تماماً بين التذكر (الذكريات) والتخيل (الخيال) . بين التصوير والشعر وبين التأمل والتساؤل , وبين النوم والحلم وبين اليقظة والمشاهدة .

السيرة الأدبية للكاتب فهد العتيق

Fahd al atiq

قاص وروائي / ولد في الرياض 1960م – السعودية

عمل في الكلية التقنية بالرياض بعد حصوله على دبلوم فني عالي في العمارة ...

بدأ الكتابة في عام 1983م .

لاقت روايته المعروفة كائن مؤجل الصادرة عام 2004 م عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر حفاوة كبيرة من الكتاب والنقاد والقراء وكتب عنها الأدباء والنقاد عدة دراسات نقدية في الصحف والمجلات العربية , وقد حققت مبيعات عالية في معارض الكتب المختلفة .

قامت الجامعة الامريكية بالقاهرة بترجمة رواية الكاتب كائن مؤجل الى اللغة الانجليزية عام 2011م , كما تُرجمت قصصه إلى الانجليزية والفرنسية عام 1993م ، عن طريق مجلة لوتس مجلة اتحاد كتاب أسيا وإفريقيا , ، كما تم ترجمة فصول من روايته كائن مؤجل عام 2008م الى الانجليزية من طريق مجلة (بانيبال) وهي مجلة الأدب العربي الحديث وتصدر من لندن .. وكتب بعض الأدباء والنقاد العرب عن قصص (إذعان صغير) و(أظافر صغيرة) ورواية (كائن مؤجل) في الصحف العربية ، باعتبارها من التجارب السردية المختلفة و المميزة على المستوى العربي...

الكتب التي صدرت:

9) الملك الجاهلي يتقاعد , رواية 2014 م .. المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت

8) قامت الجامعة الامريكية بالقاهرة بترجمة رواية كائن مؤجل الى اللغة الانجليزية وقد صدر الكتاب بعنوان life on hold..

7) كمين الجاذبية /المجموعة القصصية السادسة, قصص قصيرة جدا ونصوص , عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر /بيروت2007 م

6) هي قالت هذا/ المجموعة القصصية الخامسة , وتضم أيضا مختارات من الكتب السابقة ولحظات نقدية , عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر /بيروت2007 م .

5) كائن مؤجل / رواية, 2004 م, المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت .

4) أظافر صغيرة وناعمة/ المجموعة القصصية الرابعة, عن النادي الأدبي بجدة عام 1997م, وعن مختارات فصول بالقاهرة عام 2000م

3) إذعان صغير/ المجموعة القصصية الثالثة, عن مختارات فصول بالقاهرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب, عام 92م

2) عرض موجز/ المجموعة القصصية الثانية, إصدار خاص بالرياض عام 90م

1) مسافات للمطر/ المجموعة القصصية الأولى, جمعية الثقافة والفنون بالرياض عام 85م

fahdateq@windowslive.com